# ملكتا الجمال العربى فى صدر الإسلام[1]

بقلم على الجندى
المدرس بسوهاج الثانوية

— ٢ —

تحدثنا فى العدد الثالث من السنة الثالثة عن إحدى ملكتى الجمال العربى فى صدر الاسلام ، السيدة عائشة بنت طلحة القرشية التيمية ، وحديثنا فى هذا المقال عن ملكة الجمال الثانية ، أو على الأصح ملكة الملاحة[2] السيدة سُكينة بنت الحسين القرشية الهاشمية .

اختلف فى اسمها فقيل : أُمَيْمة ، وقيل : أمينة ، والصحيح : أن اسمها : آمنة ، وسُكينة : لقب لها .

وأبوها غنى عن التعريف ، فهو سبط الرسول وريحانته ، وسيد شباب أهل الجنة ، أبو عبد الله الحسين بن على - رضى الله عنهما - أما أمها ، فهى الرباب بنت امرىء القيس الكلبى . كان نصرانيا فوفد على عمر بن الخطاب يريد الإسلام ، فأسلم وحسن إسلامه ، وتوسم فيه عمرُ الخير ، فعقد له من فوره على من أسلم من قضاعة بالشام ، فقفل الشيخ واللواء يخفق على رأسه ، فقال عوف بن خارجة : ما رأيت رجلا لم يصل لله ركعة قط أمَّر قبله على جماعة من المسلمين !! . ونهض على بن أبى طالب ، ومعه ابناه الحسن والحسين ، فأخذ بثيابه وقال : ياعم ، أنا على ابن أبى طالب ابن عم الرسول وصهره ، وهذان ابناى من ابنته ، وقد رغبنا فى مصاهرتك فزوجنا ، فقال الرجل : قد زوجتك يا على ، المحياة بنت امرىء القيس ، وزوجتك يا حسن سلمى أختها ، وزوجتك يا حسين الرباب أختهما .

(١) راجع المقال الأول المنشور بالصحيفة : العدد الثالث من السنة الثالثة .
(٢) انظر الفرق بين الجمال والملاحة لدى الأقدمين فى مقالنا السالف .

وكانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن، محبة إلى الحسين مكينة عنده؛ تقول سكينة : عاتب عمى الحسن ، أبى فى أمى ، فقال :

لعمرك إننى لأحب داراً تحل بها سكينةُ والرباب
أحبهما ، وأبذل جل مالى وليس لعاتب عندى عتاب
ولست لهم - وإن غابوا - مضيعاً حياتى أو يغيبنى التراب

وقد خطبت بعد مقتل الحسين - عليه السلام - فقالت : ما كنت لأتخذ حماً بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورثته بهذه الأبيات :

إن الذى كان نورا يستضاء به بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبى جزاك الله صالحة عنا ، وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلا صعباً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن يغنى ، ويأوى إليه كل مسكين؟

كانت سكينة كضرتها عائشة رائعة الجمال ، كما كانت أحسن النساء شعرا ، وكانت تصفف جمتها[1] تصفيفا مبتكرا لم ير الناس أبدع منه ، فأصبح ذلك مثالا يحتذيه النساء والرجال على السواء ، وكانت تلك الجمة تسمى ( السكينية ) .

وقد بلغ من ذيوعها وافتتان الناس بها ، أن عمر بن عبد العزيز حرمها على الجنس الخشن ! فكان إذا رأى رجلا يصفف جمته ( السكينية ) حلقه وجلده .

وقد وفر الله على سكينة جمالها وصانه من كل شائبة ، إذ حدث أن خرجت لها سلعة[2] بأسفل عينها تهدد بالشر المستطير ، فعمل لها ( درافيس ) المتطبب - وكان منقطعا إليها - عملية جراحية دقيقة فبرئت منها ، وبقى أثر الجزازة فى مؤخر عينها ، فكان أحسن فى وجهها من كل حلى وزينة . ومن قولها - تباهى بحسنها : دخلتُ على مصعب بن الزبير وأنا أحسن من النار الموقدة فى الليلة القرة .

جمعت سكينة كل ما يتطلبه الرجل فى المرأة من جمال ومال وحسب ودين .

---

(١) الجمة : الشعر الذى يبلغ المنكبين .

(٢) السلعة بكسر السين زيادة تحدث فى البدن كالغدة تتحرك إذا حركت ، وقد تكون من حمصة إلى بطيخة .

فتهافت على بابها الخاطبون من سروات العرب ، فتزوجها على ترتيب بعض الروايات ، ابن عمها عبدالله بن الحسن ، ومصعب بن الزبير ، وعبدالله بن عثمان الخزامى ، وزيد ابن عمر بن عثمان بن عفان ، والأصبغ بن مروان . وكان هذا الأخير يتولى مصر ، فكتب إليه أخوه عبد الملك : اختر مصر أو سكينة ، فبعث إليه بطلاقها مكرهاً ، ولم يدخل بها ، ومتعها بعشرين ألف دينار . ولا شك أن للسياسة دخلا فى هذا الطلاق ، فقد كره عبدالملك أن يصهر أخوه إلى بنى هاشم خصوم الأمويين ، كما ساءه من قبل أن يتزوج خالد بن زيد بن معاوية رملة بنت الزبير وآل الزبير أعداء بنى أمية ؛ ولهذا السبب عينه رأيناه يرغم عامله الحجاج على طلاق ابنة عبدالله ابن جعفر بن أبي طالب ، ويؤنبه أشد التأنيب .

ثم تزوج سكينة ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وطلقها كذلك قبل الدخول ، وقد رزقت من مصعب بنتا أراد أن يسميها : ثريا ، فأبت إلا أن تسميها باسم جدتها : الرباب . وكانت بارعة الحسن كأمها . تقول : سعيدة بنت عبدالله بن سالم : لقيت سكينة بين مكة ومنى ، فاستوقفتها ورأيت ابنتها ، فإذا هى قد أثقلتها بالحلى والجواهر ، فقالت لى : ما ألبسته إياها إلا لتفضحه ، تريد أنها أحسن من الحلى الذى تلبسه .

وكان فى سكينة مشابهة بينة لعائشة بنت طلحة ، وبخاصة فى الإدلال على الأزواج . كانت تحب زوجها مصعبا حبا جما ، ويأبى لها الكبرياء أن تظهر هذا الحب ! فلما كان اليوم الذى قتل فيه ، دخل إليها فنزع ثيابه ، ولبس غلالة وتوشح بثوب ، وأخذ سيفه ، فعلمت سكينة أنه لا يريد الرجوع ، فصاحت من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب ، فالتفت إليها قائلا : أو كل هذا لى فى قلبك ؟ فقالت : إى والله ، وما أخفى أكثر ! فقال : أما لو كنت أعلم أن هذا كله لى عندك ، لكان لى ولك شأن ، ثم خرج ولم يرجع - رحمه الله -

وكان من شروطها على زيد بن عمر بن عثمان ألا يمنعها سفراً ، ولا مدخلا ولا مخرجا ، وألا يخالفها فى أمر تريده ، وأن يقيمها حيث صاحبتها ( أم منظور ) وكانت تقول له : يا عثمانى ، اخرج بها إلى مكة ، فإذا سار يوما أو يومين قالت :

رجع بنا إلى المدينة ، فإذا رجع يومه ذلك ، قالت : اخرج بنا إلى مكة . ولكن من الإنصاف أن نقول : إن هذا الدلال المسرف والتجنى المفرط ، لم يمنعها ن تكون وفية لأزواجها ، شديدة الحرص على كرامتهم ، ورعاية منزلتهم ، فقد حدث أن جفاها زوجها العثمانى ، فغناه خادمها أشعب بهذا الشعر :

علق القلب بعض ماقد شجاه من حبيب أمسى هوانا هواه
ماضرارى نفسى بهجران من ليس م مسيئا ولا بعيدا نواه
واجتنابى بيت الحبيب وما الخلد م بأشهى إلىّ من أن أراه

فقال الزوج المتيم : ماعدوت مابنفسى يا أشعب ، وأعطاه حلته ، فلما علمت سكينة بذلك ، كبر عليها أن يلبس أشعب حلة زوجها . فقالت له : وأنت الآن تريد أن تلبس حلة ابن عثمان ؟ لا والله ولا كرامة ، فاشترتها منه بثلاثمائة دينار . ولما قتل زوجها مصعب ، خطبها عبد الملك بن مروان ، فقالت : والله لا أتزوج قاتل زوجى أبداً .

وقد ورثت سكينة من بنى هاشم خصائص نعرفها فى هذا البطن من قريش : فكانت سخية مسرفة فى السخاء ، تنثر العطايا والصلات على الشعراء والمغنين ، وذوى الحاجات بغير حساب ، ويكفى للدلالة على احتقارها المال أنها كانت ترمى الجمار فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بخاتمها ، ولا يدرى إلا الله كم يبلغ ثمنه!

وكانت شجاعة جريئة ، تتحدى حكام عصرها ولا تبالهم ، فكانت تجىء يوم الجمعة ، فتقوم بإزاء خالد بن عبد الملك بن الحارث الأموى ، فإذا سب عليا ( كرم الله وجهه ) سبته هى وجواريها ، فكان يأمر الحراس بضرب جواريها ، ولا يتعرضون لها .

وكانت قوية الشكيمة ، صلبة العود ، شديدة اللدد والخصومة ، ومن آثار ذلك أن زوجها زيد بن عمر خرج مغاضبا لها ، فأقام مع جواريه سبعة أشهر بعيداً عنها ، فاستعدت عليه عمر بن عبد العزيز ، والى المدينة إذ ذاك ، فأمر ابن حزم أن يقضى بينهما ، فلما حضرته أراد أن يدخلها وحدها ، فأبت إلا أن يكون معها

جواريها، فأدخلن معها، فقالت: ياجارية، اثنى لى هذه الوسادة. فجلست عليها وزوجها لاصق بالسرير يكاد يدخل فى جوفه خوفا منها، فقال لها ابن حزم. يابنة الحسين، إن الله يحب القصد فى كل شيء. فقالت: وما أنكرت منى؟ والله إنى وإياك لكالذى يرى الشعرة فى عين صاحبه، ولا يرى الخشبة فى عينه. فقال: لو كنت رجلا لسطوت بك. فقالت: لاتزال تتوعدنى. واشتد بهما اللجاج، فقال ابن أبى جهم العدوى - وكان حاضرا - مابهذا أمرنا فامض الحكم ولا تشاتم. فقالت لمولاة لها: من هذا؟ قالت: ابن أبى الجهم. فقالت سكينة: لاأراك هنا، وأنا أشتم بحضرتك، وهتفت برجال من قريش، فغضب ابن أبى الجهم واشتد عليها، فقالت: أما والله لو كان أصحابى بالحيرة أحياء لكفوا العبد اليهودى عن شتمى، إياى - عدو الله - تشتم وأبوك الخارج مع اليهود ضنانة بدينهم، حين أخرجهم رسول الله إلى أريحاء؟. ثم خضع لها زوجها زيد وترضاها، فقالت: ماأعرفنى بك يازيد! أتراك تمكث مع جواريك سبعة أشهر ثم أعود إليك؟ ثم خرجت، والقاضى ابن حزم معقود اللسان لا يفوه بكلمة. وكان عمر بن عبد العزيز ينتظر وسط الدار فى ليلة شاتية، فلما بلغته القصة ظل يضحك حتى أمسك بطنه، ثم دعا بزوجها من الغد فأحلفه وردها عليه، ولكن النزاع لم ينقطع بينهما، فكتب إليه سليمان بن عبد الملك: إنى أعلم انك قد شرطت لها شروطا، فإن لم تف بها فطلقها، فطلقها زيد.

وكانت سمحة البديهة، قوية العارضة، ملهمة الإجابة، تذكرنا أجوبتها المفحمة الصارمة بأجوبة جدها على، وعمها الحسن، وابن عباس، فى نقاشهم خصومهم من بنى أمية وغيرهم. فمن طريف ذلك: أنها كانت يوما فى مأتم فيه بنت لعثمان بن عفان، فقالت بنت عثمان: أنا ابنة الشهيد، فسكتت سكينة حتى قال المؤذن... وأشهد أن محمدا رسول الله. فقالت لها: هذا أبى أم أبوك؟ فانقطعت العثمانية وقالت: لا أفخر عليكم أبدا.

ومن ردودها القاتلة: أنها خرجت بعد مقتل مصعب تريد المدينة، فأطاف بها أهل الكوفة قائلين: أحسن الله صحابتك يابنة رسول الله. فقالت لهم:

لاجزاكم الله عني خيرا ، ولا أخلف بخير عليكم من أهل بلد اقتلتم أبي، وجدي وعمي، وزوجي ، وأخي ، فبأي وجه تقابلونني ؟ أيتمتموني صغيرة ، وأرملتموني كبيرة !!.

ومن كلماتها التهكمية اللاذعة : أنها أنشدت يوما أبياتا لعروة بن أذينة يرثي أخاه بكرا ، فلما انتهت إلى قوله :

على بكر أخي ولي حميدا وأي العيش يحسن بعد بكر؟

قالت : ومن أخوه بكر ؟ أليس هو الدحداح الأسيد القصير ، الذي كان يمر بنا صباحا ومساء ؟ قالوا لها : نعم . فقالت ، كل العيش والله يحسن بعد بكر ، حتى الخبز والزيت .

وكانت سكينة بعد ذلك كله ذكية أريبة ، صادقة الفراسة ، دقيقة الملاحظة ، بارعة في انتزاع التشبيهات ، يقول ابن الماجشون : نظرت إلى سكينة ، فقالت : كأن هذا الرجل الماجشون . ـ والماجشون صبغ أصفر تخالطه حمرة ـ فغلب علي هذا اللقب ، وعرفت به !.

ونظرت إلى رجل من ولد عمر بن الخطاب ـ وكانت فيه جهامة ـ فقالت : هذا الرجل في قريش كالشيرج[1] في الأدهان . فكان بعد ذلك يسمى ( فلان شيرج ) بل يقال : إنها ماقلبت أحدا لقبا إلا لصق به ، لا يفارقه حتى الموت .

وهناك ناحية من أخصب نواحي سكينة ، وهي ناحية الظرف والفكاهة ، فقد كانت موسومة بالدعابة البارعة والمفاكهة المستملحة ، حتى لقد استرعى ذلك أذهان الناس ، فقيل لها : يا سكينة ، أنت تمزحين كثيرا ، وأختك فاطمة لا تمزح ، فكان جوابها ضربا من هذا المزاح الذي لا يفارقها ، قالت : لأنكم سميتموها فاطمة باسم جدتها المؤمنة ، وسميتموني آمنة باسم جدتي التي لم تدرك الإسلام .

ومما يدل على أن هذا المزح طبيعة فيها أن دبرة[2] لسعتها في صغرها فآلمتها ، فقالت لها أمها : مالك يا سيدتي ؟ فقالت سكينة : لسعتني دُبيرة ، مثل الأبيرة ، أوجعتني قطيرة ! وهذا الجواب الشعري ينظر من كثب إلى قول عبدالرحمن بن حسان ـ وقد لسعه زنبار ـ فقال لأبيه : لدغني طائر ، كأنه ملتف في

(١) الشيرج : ماتسميه العامة : السيرج ، وهو دهن السمسم (٢) نحلة

بُردى حِبَرَه ! فقال حسان : هذا شعر ورب الكعبة .

ومن نوادرها الطريفة فيما نحن بسبيله ، أنها وقفت على عروة بن أذينة ـ وكان من جلة العلماء والصالحين ـ فقالت له : أنت القائل :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد ؟

فقال نعم . فالتفتت إلى جواريها وقالت : هن حرائر، إن كان هذا خرج من قلب سليم .

وهى فى دعابتها الفاشية لا تقف عند حد ، فتراها مرة تعبث بأولى الأمر. فتقيمهم وتقعدهم . غير حافلة بما يكون : أرسلت مرة إلى صاحب الشرطة : أن دخل علينا شامى ! فابعث إلينا بالشرط ، فأتى رئيس الشرطة فتحت له ، وأمرت جارية من جواريها أن تخرج له برغوثا ، وقالت : هذا هو الشامى الذى شكوناه إليك ، فانصرفوا وهم يضحكون . وتراها مرة أخرى تحدث بدعابتها فتنة تكاد تلتهم الأخضر واليابس ، وهى تشاهد ذلك وادعة ساكنة ، كأن الأمر لا يعنيها : حدث أن خطبها إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فردته أقبح رد ، وفى ذات يوم تنهدت جاريتها بنانة تنهدا عميقا ، فقالت لها : ويلك ! مالك ؟! فقالت الجارية : أريد أن أرى فى هذا البيت جلبة ، أى عرسا ! فأرسلت سكينة من فورها إلى ابن عبد الرحمن بن عوف الذى خطبها فردته ، وأظهرت رضاها به ـ وهى فى نفسها غير راضية ـ فأحضر الزوج نحو ثمانين رجلا من بنى زهرة ، وغيرهم من أعيان قريش ، فلما سمع بذلك بنو هاشم غضبوا غاية الغضب ، وجاءوا بعصيهم ، وتضارب الطرفان ، فبطل العرس . وشج أكثر من مائة إنسان ! وحين انصرف الجمع التفتت إلى جاريتها قائلة : أى بنانة ، أرأيت جلبة ؟ قالت : إى والله ولكنها شديدة .

وكانت إذا غضبت على خادمها أشعب ، حكمت عليه أن يموء كالهرة ، أو يقرقر كالدجاجة . يقول رجل من قريش : دخلت منزل سكينة ، فإذا أنا بأشعب تحت سرير يقرقر كالدجاجة ، فجعلت أنظر وأتعجب ، فقالت : مالك تنظر إليه ؟ إنه لخبيث

أفسد علينا أمورنا بغباوته ، فحضنته بيض دجاج ، وجعلته تحته ، وأقسمت ألا يقوم حتى ينقُف . وكان للفرزدق دالة عليها لتشيعه للعلويين ، فغضبت عليه ذات مرة ، وحلفت ألا يدخل إليها حتى يشيب الغراب ! فأراد الفرزدق أن يترضاها بنوع من الدعابة التى تحبها ، فدخل إليها ، وجعل أمامه نصيبا الشاعر - وكان أسود البشرة ، أشيب الرأس - فقالت سكينة : أخزاك الله ، وكيف أصنع بيمينى؟ فالتفت الفرزدق إلى نصيب قائلا : هذا هو الغراب وقد شاب ، فضحكت ورضيت عنه .

أما سكينة الأديبة ، فنقر بالعجز عن الإحاطة بنواحيها ، وحسبنا أن نقول : إنها كانت حجة من حجج عصرها فى هذا الفن : كان كبار الشعراء ، وحذاق المغنين يتحاكمون إليها مطمئنين ، فتقضى بينهم قضاء لا يرد؛ لأنه قضاء العالم الخبير .

دخل إليها ابن سريج والغريض فى بعض حجاتها ، فقال ابن سريج : ياسيدتى إننى كنت صنعت صوتا ، وتنوقت فيه ، وخبأته لك فى حريرة ، فى درج مملوء مسكا ، فنازعنيه هذا الفاسق ، فأردنا أن نتحاكم إليك ، فأينا قدمته تقدم ، فغناها ابن سريج :

عوجى علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلى تحرجى

فقالت : هاته أنت ياغريض ، فغناها إياه ، فقالت لابن سريج : أعده ، فأعاده ، ثم قالت : ياغريض ، أعده ، فأعاده ، فقالت : ما أشبهكما إلا باللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان ، لايدرى أى ذلك أحسن .

وأنشدت مرة قول الحارث المخزومى :

ففرغن من سبع وقد جهدت أحشاؤهن موائل الجزر (١)

فقالت : أحسن عندكم ماقال ؟ قالوا : نعم . قالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الإبل سبعاً لجهدت أحشاؤها . ودخل عندها كثير عزة ، فقالت له : يابن أبى جمعة ، أخبرنى عن قولك فى عزة :

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها(٢) وعرارها

(١) جمع خمار .

بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

ويحك ! وهل على الأرض زنجية منتنة الإبطين، توقد بالمندل الرطب نارها إلا طاب ريحها ؟ ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباوإن لم تطيب؟

وخرج الفرزدق حاجا ، فلما قضى حجه قصد المدينة ، فدخل إليها فسلم ،فقالت: يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ، أشعر منك جرير الذى يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز علىّ ومن زيارته لمام

ومن أمسى وأصبح لاأراه ويطرقنى إذا هجع النيام

فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : فأقيموه ، فأخرج ، ثم عاد إليها من الغد فقالت : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ . قال : أنا . قالت كذبت ! صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرت قبرك ، والحبيب يزار

كانت إذا هجر الضجيع فراشها كُتم الحديث ، وعفت الأسرار

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه ، فأمرت به فأخرج ، ثم عاد فى اليوم الثالث وحولها موليات كأنهن التماثيل ، فأعجب الفرزدق بواحدة منهن ، ثم قالت سكينة : من أشعر الناس ؟ . قال : أنا . قالت : كذبت ! أشعر منك جرير الذى يقول :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . فأمرت بإخراجه . فالتفت إليها قائلا : يا بنة رسول الله ، إن لى عليك حقا عظيما : خرجت إليك من مكة ؛ إرادة التسليم عليك ، فكان جزائى تكذيبى وطردى ، وتفضيل جرير على ، وبى ما قد عيل منه صبرى ! وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلى لا أفارق المدينة حتى

أموت ! فإذا أنا مت ، فمرى أن أدرج فى كفنى ، وأدفن فى جوف هذه الجارية - يعنى التى استحسنها - فضحكت سكينة ، وأمرت له بها ، فخرج آخذاً بريطتها ، والجوارى يدفنن فى أقفيتهما ! . ثم نادته سكينة : يافرزدق ، احتفظ بها ، وأحسن صحبتها ، فقد آثرتك على نفسى بها .

وحدث حماد قال : اجتمع بالمدينة راوية جرير ونصيب والأحوص وجميل ، فافتخر كل واحد منهم بصاحبه ، وقال : صاحبى أشعر . فاتفقوا على تحكيم سكينة ؛ لما يعرفون من عقلها ، وبصرها بالشعر . فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أحسن من الطروق ؟ قبح الله صاحبك ، وقبح شعره !

ثم قالت لرواية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى

فما أدرى بصاحبك من هوى . إنما يطلب عقله ، قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فوا حزنا ! من ذا يهيم بها بعدى ؟

فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده ! هلا قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة والذها حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قال : نعم . قالت : قبح الله صاحبك وقبح شعره ! هلا قال : تعانقا .

فلم تثن على واحد منهم ، ولم تقدمه فى ذلك اليوم ، وقد ذكر الهيثم بن عدى مثل ذلك فى جميعهم إلا جميلا ، فإنه خالف فيه هذه الرواية وقال : إنها قالت لراويته : أليس صاحبك الذى يقول :

فياليتنى أعمى أصم تقودنى بثنية ، لا يخفى على كلامها

قال : نعم . قالت : رحم الله صاحبك ! إنه كان صادقاً فى شعره ، وكان جميلا كاسمه .

وذكروا أنه اجتمع فى ضيافتها جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب ، فمكثوا أياماً ، ثم أذنت لهم ، فدخلوا إليها ، فجلست حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم ، ثم أخرجت وصيفة وضيئة ، قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت لهم : أيكم الفرزدق ؟ قال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل :

هما دلتانى من ثمانين قامة كما انحط باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا أحى يرجى ؟ أم قتيل نحاذره ؟

فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا وأقبلت فى أعجاز ليل أبادره

أبادر بوابين قد وكلا بنا وأحمر من ساج تبص مسامره

قال : نعم . قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها ؟ هلا سترت عليك وعليها ، خذ ألف درهم والحق بأهلك .

ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت ، فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

تجرى السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام

لو كان عهدك كالذى حدثتنا لوصلت ذاك وكان غير لمام

إنى أواصل من أردت وصاله بحبالِ لا صلف ولا لوام

قال جرير : نعم . قالت : هلا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف وفيك ضعف . خذ هذه الألف ، والحق بأهلك .

ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت ، وقالت : أيكم كثير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل :

وأعجبنى ياعز منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع :

دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المنى حين يطمع

فوالله لا يدرى كريم عاطل أينساك إذ باعدت أم يتصدع

قال : نعم . قالت: ملحت وشكلت! خذ هذه الثلاثة الآلاف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت : أيكم نصيب ؟ قال هأنذا . قالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت : بنفسى النشأ الصغار

بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال : نعم . قالت: ربيتنا صغارا، ومدحتنا كبارا. خذ هذه الألف، والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت : ياجميل ، مولاتى تقرئك السلام ، وتقول لك : والله مازلت مشتاقة إلى رؤيتك ، منذ سمعت قولك :

يقولون جاهد ياجميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيـــل بينهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتيلنا شهيدا ، خذ ألف دينار والحق بأهلك .

وقد بلغ من حبها للأدب ، وتتبعها لأخباره ، أنها كانت تسير ذات ليلة ، فسمعت حاديا يحدو فى الليل ويقول :

لولا ثلاث هن عيش الدهر ...

فقالت لقائد قطارها : الحق بهذا الرجل حتى نعرف ماهذه الثلاثة ، فسار بها طويلا حتى تعبا ، فقالت له : سر أنت حتى تسمع منه ، فرجع إليها ، فقال : سمعته يقول : الماء والنوم وأم عمرو .

فقالت : قبحه الله ، لقد أتعبنا منذ الليلة .

هذا، ولم تسلم سكينة مع سمو مكانتها فى قريش من جمحات ابن أبى ربيعة ، ولكنها كانت لما يقول أرحب صدرا من ضرتها عائشة بنت طلحة ، ولعل ذلك راجع إلى أن حظها من الطرب والمرح أوفى من حظ عائشة ، ونجل سكينة عن إيراد شيء من شعر عمر فيها، مع خلوه من الفحش والرفث . وأذكر بهذه المناسبة: أن إسحاق الموصلى غنى الرشيد صوتا فى نسيب عمر بها ، فوضع الرشيد القدح

من يده . وغضب غضبا شديدا، وقال: لعن الله هذا الفاسق، ولعنك معه . فسقط فى يد إسحاق ، وعرف الرشيد ما به فسكن غضبه : ثم قال له : أتغنينى أحاديث الفاسق ابن أبى ربيعة فى بنت عمى . وبنت رسول الله ؟ ألا تتحفظ فى غنائك ، وتدرى مايخرج من رأسك ؟ عد إلى غنائك الآن ، وانظر بين يديك . قال إسحاق : فتركت هذا الصوت حتى أنسيته ، فما سمعه منى أحد بعده .

ومما تقدم نعرف أن ريحانتى قريش: عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين، كما تشاكلتا فى الحسن والجمال والثروة والجاه ، تشاكلتا كذلك فى عامة أخلاقهما، ونزعتهما الأدبية . رحمهما الله تعالى !

على الجندى